



عاقبة العصاة والمكذبين

(006) سورة الأنعام

اللقاء الثاني من تفسير سورة الأنعام - شرح الآيات 9-18

2022-10-29

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا رب العالمين.

لجوء الإنسان إلى طلبات تعجيزية عندما يريد أن يتخلى عن واجباته:

وبعد؛ مع الآية التاسعة من سورة الأنعام، ومع اللقاء الثاني من السورة، والآية التاسعة هي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (9)

[سورة الأنعام]

الآية التي قبلها، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفِصِّي الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ (8)

[سورة الأنعام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنْ كَانَ دُوْ عُسْرِهِ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280)

[سورة البقرة]



الإنظار هو الإمهال

أي أمهله إلى حالة اليسر، ولا تلجئه إلى أن يدفع زيادة في المال مقابل الأجل، هذا هو الربا (فَنَظِرَةٌ) فالإنظار هو الإمهال، أنظره: أمهله.

فهؤلاء يطلبون أن ينزل ملك من السماء عليهم، لا يريدون رسولا بشرا، يريدون رسولا ملكا، الإنسان عندما يريد أن يتخلى عن واجباته، أو أن يكذب بالمحكمات الواضحات البيّنات يلجأ إلى طلبات تعجيزية، هذا معروف في عالم الناس اليوم، إذا إنسان طالبتة بشيء معين وهو لا يريد أن يعطيك إياه فيبدأ بالتعجيز، أحضر لي ورقة من دائرة كذا وكذا، وورقة من هنا، فتفهم أنه لا يريد أن يقوم بالأمر.

وقديماً قالت العرب: إذا أراد الرجل ألا يزوج ابنته رفع في مهرها.

فهم يريدون التعجيز، فمن ذلك أنهم (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ) فكان الرد الأول من الله سبحانه وتعالى عليهم: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أُنزِلْنَا مَلَكًا لَفُصِيحِي الْأَمْرِ نَمَّ لَا يُنْظَرُونَ) ليس من مصلحتكم ذلك، لأن الملك آية عظيمة من آيات الله عز وجل، فلو نزل ثم لم تؤمنوا لم يعد هناك مجال، مدة، مهلة (لَفُصِيحِي الْأَمْرِ) لأخذكم الله تعالى فوراً، فمن سنة الله تعالى أنه إذا أنزل الآية فليس هناك إمهال، الإمهال حتى تأخذ وقتك في الإيمان عندما يكون غيباً، أما عندما يصبح شهادة ثم لا يؤمن الإنسان فليس هناك وقت، لا يوجد إمهال، الله عز وجل يمهلتنا جميعاً، يعطينا فرصة، الإنسان يتعثر، وينوب، ويرجع، ويخطئ، ويصيب، فالله عز وجل يمد له في عمره، حتى يتحقق من الإيمان بالله عز وجل بالغيب، لكن من يطلب الآيات بالرؤية والمعابنة والمشاهدة فليس هناك مدة للإيمان، إما أن تؤمن فوراً، إذا لم يؤمن يؤخذ بالعذاب، فليس من مصلحتكم طلب الملك، هذا الجواب الأول.

بشرية الإنسان لا تتعامل إلا مع بشر:



قدرتك البشرية لا تتحمل رؤية الملك

الآن الجواب الثاني؛ قال: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) أنت أيها الإنسان بقدرتك التي خلقك الله تعالى عليها لا تستطيع أن تحيط بالملك، فالملائكة مخلوقات من صنف آخر غير صنف الإنسان، فلو أراد الله أن ينزل إليك ملكاً لجعله على هيئة رجل، لأن قدرتك البشرية لا تتحمل رؤية الملك، ولأن بشرتك لا تستطيع أن تتعامل إلا مع بشر، فالنتيجة واحدة فلما بعث الله تعالى ملكاً لمريم عليها السلام قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)

[سورة مريم]

جعله على هيئة بشر، ولما أرسل ملكاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل شديد البياض والنياب.

{ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ،

لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ الشَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ }

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي]

فلما انصرف قال: **(فإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَنْتُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)** لكن لما أرسل الله تعالى أرسله على هيئة بشر، ولما أرسل لإبراهيم الملائكة أيضاً جاؤوا على هيئة بشر، وما خاف منهم إلا لما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام

لكن هم دخلوا على شكل رجال، إبدأ سنة الله تعالى لو نزل الملك فإنه سينزل على هيئة رجل، على هيئة بشر، لأنك لا تستطيع أصلاً أن تقتدي إلا ببشر، فلو نزل ملك وقال للناس: أنا ملك وأطبق أمر الله عز وجل، قال له الناس: نحن بشر لا نستطيع أن نطبق ولدنا شهوات، أما أنت فملك، تأتمر بما أمر الله، وتنتهي عما عنه نهى وزجر بدافع من الطينة التي جبلك الله عليها، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

[سورة التحريم]

أما نحن فبشر، يصيبنا ما يصيب البشر، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على بشريته فيقول كما في الصحيح:

{ إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر }

[أخرجه مسلم]

وقال له الله تعالى في كتابه في أكثر من آية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاجِدُ قَمَرٌ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا
(110)

[سورة الكهف]

ميزتي الوحي، أما بشرتي فهي قائمة، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم بشر تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر.

استخدام العصاة للمواربة والمماحكة من أجل الفرار من الإيمان:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْتَسْتَأْذِنَهُمْ مَا يَلْبَسُونَ) اللبس هو الخلط، ما الذي يلبس عليهم الآن ؟ هو بشرية النبي صلى الله عليه وسلم، يريدون ملكاً، فلو جاء ملك على هيئة رجل لقال قائلهم: هذا ليس ملكاً، هذا مثلنا، له يد، وله رجل، يأكل، ويشرب، فعاد الأمر إلى المربع الأول، هذا نقاش عقلي، عملية عقلية بحتة (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْتَسْتَأْذِنَهُمْ مَا يَلْبَسُونَ) لاختلط الأمر من جديد، ولقال قائلهم: هذا ليس ملكاً الملائكة لا تكون كذلك، هذا على هيئتنا، فكيف تقولون: إنه ملك؟! إذا هم لا يملكون قراراً بالإيمان، وسيعودون للمواربة والمماحكة من أجل الفرار من الإيمان، لأنهم لا يملكون قراراً بالإيمان.

تذكير النبي بما جرى مع الرسل السابقة تسلياً لقلبه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10)

[سورة الأنعام]



الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم

هذه اللام للقسام، وقد للتحقيق (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ) وكأن الكلام كما استهزئ بك، وإلا لما كان من معنى لذكر من قبلك، إلا أنه استهزئ به صلى الله عليه وسلم، ولعله مما استهزئ به هو قولهم (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ) هذا جزء من الاستهزاء، عندما تطلب معجزة وكل شيء واضح وبين، والأمور كلها تدعو للإيمان، ثم تقول: أريد معجزة؟ فهذا من الاستهزاء.

قال: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ) وفي هذا تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالإنسان عندما يجد من وقع بمثل ما وقع به ترتاح نفسه قليلاً. هب أنك زرت مريضاً بمرض ما، فقلت له: إن شاء الله خير، والله أخي فلان تعرفه، قال: نعم، المرض نفسه، الحمد لله كما تراه، تيسرت أموره، والله عز وجل فرح عنه، فيسرى عنه عندما يجد من شاركه في المصيبة ذاتها، ثم أعزه الله، ورفع قدره.

فهؤلاء الذي مضوا من الرسل كذبوا، واستهزئ بهم، لكن كانت لهم العاقبة، ففي هذا تسلياً لقلب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) حاق؛ بمعنى أحاط، يحيط، أحاط يحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (43)

[سورة فاطر]

فحاق؛ أي أحاط (فحاق بالذين سَخِرُوا مِنْهُمْ) السخرية والاستهزاء بمعنى واحد، وإن كان الهزء قد يجاوز السخرية، ويقال للساحر ساحراً وبأنه يسخر من الآخرين لأنه كأنما يسخرهم لنفسه فيعبث بكرامتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

[سورة الجاثية]

الخروف مسخر للإنسان، فالإنسان هو الذي يتصرف بالخروف، وليس الخروف هو الذي يتصرف به، فأنت تذبحه، وتأكل لحمه، وتلبس جلده، وتذبح البقرة وتشرب لبنها، إلى آخره، فأنت ما سخر لك تتحكم به، فالساخر جعل الآخرين مسخرين لخدمته فعبت بكرامتهم، وسخر منهم، من هنا جاءت السخرية.

عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة عاقبة السخرية من الأنبياء والرسول:

(فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) ما أكثر ما كان يستهزئ الناس بالرسول ؟ العاقبة، وقوع الوعد والوعيد، أكثر ما كان يجعلهم يستهزئون العاقبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَةً قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16)

[سورة ص]

هو يقول لهم: هناك يوم حساب، هناك نار، يستهزئون، نريد العذاب الآن، العذاب الذي تتكلم عنه الآن، نريده الآن، هزء، فأكثر ما استهزؤوا به هو المال، العاقبة (فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي وقعت الواقعة، ونزل العذاب، العذاب الذي نزل يقوم لوط، يقوم عاد، بالأمم، وقريش كانت تذهب بتجارتها بين الشام واليمن، وتمر على مصارع الأقوام السابقة، وعندهم علم بالتاريخ، وبرون هذه الصور المتفرقة لأقوام عتوا عن أمر ربهم، وسخروا، واستهزؤوا، ثم وقع ما سخروا به الآن، وسبق ما سخروا به يوم القيامة عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة.

النظر في عاقبة المكذبين الهدف منه نظر الاعتبار لا مجرد نظر العين:

قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (11)

[سورة الأنعام]

السير في الأرض ولم يرد في القرآن سيرٌ على الأرض، قد يقول قائل: إن الأصل أن يكون السير على الأرض لا فيها، لكن الله تعالى يقول دائماً: (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) وفي آية: (ثُمَّ انظُرُوا) وفي آيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (137)

[سورة آل عمران]

فالنظر قد يكون فوراً، وقد يكون النظر فيه تراخ، ثم للتراخي، التراخي الرتبي وكأن النظر يحتاج إلى وقت (ثُمَّ انظُرُوا)، هناك آيات (فَانظُرُوا) إذا كان الإنسان فالهدف من الرحلة العظة والاعتبار (فَانظُرُوا)، وإذا كان ذهب بتجارة (ثُمَّ انظُرُوا) فيكون الأساس في السير أنه ذاهب في رحلة تجارية، لكن لا يمنع أن تضيف إليها العبرة والاتعاط، أخذ العبرة والعظة.



الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس.

فالمسير في الأرض، لماذا قال (في الأرض) ؟ من اللطائف العلمية في هذا المجال أن الهواء جزء من الأرض، لأن هناك جاذبية، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس هي وما حولها من الغلاف، فإذا كانت الأرض والهواء الذي عليها شيء واحد يتحرك معاً فإذا سار الإنسان على التراب فهو يسير في الأرض لا عليها، لأنه ضمن الهواء، لأنه أصلاً لا يستطيع أن يعيش بلا هواء، الإنسان يمكن أن يعيش بلا ماء ثلاثة أيام مثلاً، وبلا طعام يمكن لأسبوع، أما بلا هواء فدقيقة، دقيقتان ثم يموت، فالهواء جزء من الأرض، فأنت لما تسير على التراب أنت تسير في الأرض لا عليها، لأنك داخل الغلاف الجوي.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) وهذا النظر يقصد به نظر الاعتبار، لا مجرد نظر العين، وإلا فكل الناس ينظرون، لكن النظر المقصود هنا هو نظر الاعتبار (ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) والسؤال هنا عن الكيف، النظر هنا في الكيف، كيف أهلك الله هؤلاء ؟ وكيف أهلك هؤلاء ؟ وكيف كانت عاقبتهم ؟ والمكذبين هنا بمقابل المستهزئين، وكانهما صفتان لهؤلاء، يستهزئون ويكذبون.

ملك الإنسان ناقص بينما ملك الله تام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيَكَ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَاتِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12)

[سورة الأنعام]

(قُلْ) يا محمد صلى الله عليه وسلم (لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الملك (لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ) لا تنتظرهم ليجيوا، أجبهم أنت، في آيات أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَقَلَّ تَذَكَّرُونَ (85)

[سورة المؤمنون]

(سَيَقُولُونَ) أي يقرر لهم الجواب الذي لا يمكن أن ينكره أي إنسان، أن الملك لله عز وجل، لكن هنا لا يمهلهم ليجيوا، وإنما يقرر لهم الحقيقة، وكأنه - ولله المنزلة الأعلى - أن يسأل الأب ابناً سؤالاً: لماذا لم تدرس ؟ ثم يقول له: لأنك شغلت وقتك كله وراء الجوال، فلا ينتظره ليجيب، وإنما يعطيه الجواب الذي تقرر في نفسه لما سأله فوراً، ولكنه لم ينطق به خجلاً فجاءه الجواب.

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ) كل ما في السماوات والأرض هو ملك لله، فالله تعالى هو المالك الحقيقي جلّ جلاله، يملك الأشياء كلها، وقد أسلفنا في ذلك خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، فهو خلقها، وهو يتصرف بها كيف يشاء، وستعود إليه فهو الوارث جلّ جلاله، أما ملك الأدميين فملك ناقص، فهم ربما ملكوا الأشياء فتصرفوا بها تصرفاً محدوداً لكنهم لم ينشئوها، وربما تصرفوا بها تصرفاً واسعاً نوعاً ما، لكن لا يملك إنسان أن يبقى هذا الشيء ملكاً له لثانية واحدة، فيمكن أن يتحول إلى الورثة إذا توقفت نبضات القلب، فيصبح ليس ملكاً له، إداً ملك الإنسان ناقص بينما ملك الله تام.

الرحمة هي الأصل في تعامل الله تعالى مع عباده:

قال تعالى: (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) جلّ جلاله كتب: من الكتابة، الله تعالى ليس بحاجة أن يكتب، لكنه جلّ جلاله تماشياً مع حاجة الناس البشرية، فإذا أقرضت إنساناً مالا قلت له: رجاء اكتب لي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَابَرْتُمْ يُدِّينَ إِلَىٰ أَجْلِ مُسَمَّيٍّ قَاتِبُوهُ (282)

[سورة البقرة]



الأصل في تعامل الله مع عباده هو الرحمة فتقول له: اكتب لي، لأنك تشعر أن الكتابة فيها توثيق، فالله تعالى يطمئنك أنه **(كَتَبَ عَلَىٰ تَفْسِيرِ الرَّحْمَةِ)** ألزم ذاته العلية وهو الغني عن عباده بأن يرحمهم، الرحمة هنا ليس **(كَتَبَ عَلَىٰ تَفْسِيرِ الرَّحْمَةِ)** بأن يكون رحيماً، لأنه الرحيم جلّ جلاله، فليست هنا صفة ذات إنما صفة فعل المقصود، أي كتب على نفسه أن يرحمك، لذلك في الصحيحين:

{ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما قَصَى اللَّهُ الخَلْقَ، وعند مسلم: **لَمَا خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ**

فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي سَبَقْتُ عُضْبِي }

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي]

فالأصل في تعامل الله تعالى مع عباده هو الرحمة، ونحن في كل صلاة نقرأ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)

[سورة الفاتحة]

فعلاقته بعباده جل جلاله بناها على الرحمة، وأنزل:

{ عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، **فرحمة بين خلقه**

يتراحمون بها، وادخر لأولياته تسعة وتسعين }

[أخرجه الطبراني]

جمع الناس يوم القيامة شيء ثابت لا شك فيه:

(كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ) هذه اللام للقسم، والنون للتوكيد (لِيَجْمَعَنَّكُمْ) بأشد أنواع التوكيد (لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) أي لا شك فيه ، ليست القضية أننا سُبِعَتْ أو لَنْ تُبْعَثَ، كما قال الشاعر:
لا ليست القضية هكذا (لَا رَيْبَ فِيهِ) (لِيَجْمَعَنَّكُمْ) الاجتماع قائم قائم، أقررت به أو لم تقر، أنكرته أم أثبتته، (لِيَجْمَعَنَّكُمْ) لام القسم ونون التوكيد (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ثم أكد (لَا رَيْبَ فِيهِ) أي ثلاثة مؤكدات، لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة و(لَا رَيْبَ فِيهِ) تأكيد أكثر (لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ).

أعظم خسارة أن يخسر الإنسان نفسه:



لا تتحقق الغاية إلا بعد تحقق الوسيلة

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) نحن عندنا غاية، وعندنا وسيلة، والوسيلة تسبق الغاية، تدرس فتتج، تسبقها في الفعل، لا يوجد إنسان نجح قبل أن يدرس، لا تتحقق الغاية إلا بعد تحقق الوسيلة، لكن في التصور الغاية تسبق الوسيلة، فما يدرس طالب إلا لأنه وضع أمامه ونصب عينيه النجاح.
مرة حضرت مقابلة لطلاب حاز الدرجة الأولى في امتحان الثانوية العامة، فسأله المذيع سؤالاً قال: أنت أخذت الأول على القطر، فما سر ذلك ؟ فأجاب إجابة رائعة طالب ذكي جداً، قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر ذهني لثانية واحدة.

فالعناية تسبق الوسيلة في التصور، لكن بالفعل الوسيلة قبل الغاية، يدرس فينتج، لكن الذي لا يضع الغاية أمامه لا يسير بالوسيلة، فهنا قدم الله تعالى الغاية على الوسيلة (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) هم لماذا خسروا أنفسهم ؟ لأنهم لم يؤمنوا، فما قال تعالى: الذين لم يؤمنوا فخسروا أنفسهم، وإنما جاء بما حصل معهم بالمحصلة لأنه هو الأساس، ثم جاء بالوسيلة التي منعتهم من تحقيق الربح (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ما كان خسراهم إلا بسبب بعدهم عن الإيمان، وأعظم خسارة أن يخسر الإنسان نفسه، تخيل أن يخسر الإنسان ماله، كم الخسارة مرعبة ومزعجة ؟! رأس ماله، الإنسان يقول لك: لم يبق معي مال، مشكلة، لكن أن يخسر نفسه التي أهلها الله تعالى للجنة فيصل لله عز وجل وهو خالي الوفاض، هذه أعظم خسارة (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ).

كل شيء في الكون لله ولا أحد يشاركه فيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)

[سورة الأنعام]



الخصر والقصر في اللغة العربية

(وَلَهُ مَا سَكَنَ) لو قال: ما سكن له، لاحتمل أن يكون لغيره معه، لكن من أساليب الخصر في اللغة العربية والقصر أن يقدم الخبر شبه الجملة على المتبدأ، فقدم الجار والمجرور (وَلَهُ مَا سَكَنَ) فنقول أنت: لي كل هذا الطعام، أي لا يشاركني به أحد، أما لو قلت: هذا الطعام لي، لربما نقصد أن تسعين بالمنة منه لك، وأن غيرك يشاركك به، فالتقديم يفيد الخصر، فقال: (وَلَهُ مَا سَكَنَ) أي له وحده، وليس أحد يشاركه في الملك.

الآن الكلام طبعاً فيه عطف، وله: يعطف على ما قبله، ما قبله (قُلْ لِلَّهِ) (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لكن الآن من باب العطف الخاص على العام، أي أشياء خاصة. كأن يقول إنسان: أنا هذا البناء كله لي، ثم يقول: لعل من يتوهم أن مكان اصطاف السيارات - الكراج - ليس لي، فيقول: ولي الكراج والمستودعات التي في أسفل البناء، لأنه قد يقول قائل: لعله اشترى البناء ولم يشتري مصفات السيارات مثلاً، فيعطف الخاص على العام بأشياء دقيقة قد لا ينتبه أنها من ضمن الملك. فجل جلاله قال: (وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) السكون يأتي بعد الحركة، كل ساكن يوصف بالحركة إذاً، لأنه ما سكن إلا لأنه تحرك، والسكون دائماً علامة، من لوازم السكون الخفاء، ومن لوازم الحركة الظهور، السكون ضد الحركة، ومن لوازمه الخفاء، فالشيء الساكن لا ينتبه له، شيء متحرك تقول: أسمع صوتاً، الحركة تؤدي إلى صوت، أو إلى حركة أمام العين تلفت الأنظار، فالشيء الساكن قد لا ينتبه له، فيبين جل جلاله أنه حتى الساكنات، الخفيات التي لا يُنتبه لها فهي له جل جلاله، وبدأ بالليل، لأن الليل السكون فيه أشد، ولكيلا يتوهم متوهم أن الأمر محصور في ليل فقد يسكن في نهار، فلا يكون لله قال: (وَالنَّهَارِ)، لأنه لو قال (وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ) لقال قائل: وما سكن في النهار لمن؟ فقال: (وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) جل جلاله.

الله تعالى سميع عليم بكل شيء:

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) سميع سمعاً ليس كسمعنا، بصير بصرأ ليس كبصرنا، لا يسأل عن كيف، كما قلنا قبل اللقاء، السميع على وزن فعيل، البصير على وزن فعيل، أي عظيم السمع، عظيم العلم جل جلاله، هناك سامع وسميع، عالم وعلیم، الله تعالى لا يوصف بأنه سامع أبداً، يوصف بأنه سميع، عليم، وهناك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَتَوَمَّ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ (73)

[سورة الأنعام]

جاءت بصيغة من غير مبالغة، لكن الاسم المفرد عليم وليس عالماً (الْعَلِيمُ) فهي صيغة مبالغة، أي شديد العلم، شديد السمع، فسمعه يحيط بكل شيء، يسمع جل جلاله، لكن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

[سورة الشورى]

جل جلاله، (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

لله ما في السماوات وما في الأرض فلا يليق بالإنسان أن يتخذ ولياً غيره:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعْتَرِ اللَّهَ أَلْتَدْعُو لِيَلِيًّا قَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)

[سورة الأنعام]



الولي هو الناصر

(قُلْ) أيها الرسول صلى الله عليه وسلم (أَعْبُدِ اللَّهَ أَتَّجِدُ وَلِيًّا) هذا الكلام مترتب على ما قبله، فإذا كان الله تعالى له ما في السماوات وما في الأرض، (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وإذا كان يسمع كل شيء، ويعلم كل شيء، بهذه الصفات جل جلاله فهل يليق بك أن تتخذ ولياً غيره؟ أو هل يعقل أن تتخذ ولياً غيره؟ الولي؛ هو الناصر، الذي يواليك فينصرك إذا احتجت شيئاً، إذا هنا التوجه، ما سبق كله من الربوبية، الملك له جل جلاله وحده، حتى المشركون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قَاتَى يُوقُونَ (61)

[سورة العنكبوت]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا رُوحَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ تَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
ثَلَاثٍ دَلِكُمْ اللَّهُ رُبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتَى تُصْرَفُونَ (6)

[سورة الزمر]

فهم يقرون، ما سبق يقر به المشركون، المشركون ما تجرؤوا على ما يقول اليوم بعض الملحدين الذين يسمون أنفسهم متقنين، مشركو العرب ما تجرؤوا على هذا الكلام، هم مقرون بأن الله عز وجل خلقنا، وهو الذي يطعمنا، وهو الذي يسقينا، لكن كانت عندهم مشكلة في الفرع الثاني في التوحيد وهو الألوهية، التوجه إلى الله، فكانوا يتوجهون إلى أصنامهم لتقريبهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

[سورة الزمر]

ف عندهم مشكلة في الخط الرابع، وليس في النازل، مقرون بكل شيء من الله، لكنهم لا يعترفون بأنه يستحق العبادة فيعبدون أصنامهم، بعض الملحدين اليوم سبقوا كفار قريش والعباد بالله سبقوا أبا جهل، أبو جهل الآن إذا رآهم يقرع عليهم بنعاليه، لا يقبل منهم ذلك، لأنه غير مقبول منطقاً، ولا عقلاً، أي لا تستسيغه النفوس أصلاً.

(قُلْ أَعْبُدِ اللَّهَ) هذا استفهام، هذه همزة الإنكار، أي لا أنكر ذلك، معاذ الله أن (أَتَّجِدُ) غيره (وَلِيًّا) ما دنا نقر جميعاً بأن له كل شيء، فكيف أتخذ غيره ولياً؟

خلق الله تعالى كل شيء من العدم فهو فاطر كل شيء:

(قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَلْتَجِدُوا قَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) رجعنا إلى الأول، الفاطر؛ من الفطر وهو الشق، وهو فطر بمعنى خلق على غير مثال سابق.

وقد ذكرت لكم قبلاً أن ابن عباس رضي عنه قال: ما فهمت معنى فاطر إلا عندما اختصم لديّ أعرابيان، فقال أحدهما: أنا لي البئر، وقال الآخر: بل لي البئر، فقال الأول منهما: أنا فطرته، أي أنا شققته، وأنشأته، ولم تكن موجودة سابقاً.



الفطر هو الإنشاء على غير مثال سابق

فالفطر هو الإنشاء على غير مثال سابق، فالله تعالى فاطر جل جلاله، خلق فأبدع على غير مثال سابق، الطائرة ليست فطراً لأنها على مثال سابق وهو الطائر، الإنسان كيف ألهم صناعة الطائرة؟ من رؤية الطائر يطير بجناحيه في الهواء، فصنع طائرة لها جناحان، ثم إن الطائرة هي مجموعة أشياء موجودة، الحديد من الأرض مستخرج، والبلاستيك، والكهرباء، كل شيء مستخرج من الأرض، لذلك كنت أقول دائماً: ما يصنعه البشر ليس من الصواب تسميته اختراعاً، وإنما هو اكتشاف، أي كأن هناك شيئاً كان مغطى فاكتشفه الإنسان، كشف عنه ورأه، وإنما هو موجود، لا يوجد شيء البشر اخترعوه، بمعنى أوجدوه من العدم وإلا لأصبحوا خالقين، لذلك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفَّةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ (14)

[سورة المؤمنون]

لأنه يخلق من عدم جل جلاله، فالفطر هو الإنشاء على غير مثال سابق.

الله تعالى يحتاجه كل شيء في كل شيء وهو مستغن عن كل شيء:

(قَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ) هذا تعريض بآلهم، فقد كانوا يذهبون إلى آلهتهم وأخذون لها بعض الطعام، ثم يخرج سدنة المعابد ويأكلون هذا الطعام، وحتى اليوم في بعض بلاد شرق آسيا ينزل طيب في منتهى العلم والخبرة ويضع لإلهه تفاع، أو شيئاً قبل أن يذهب، أين عقولهم؟

فقال: (وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ) هو الذي يطعمك جل جلاله، بمعنى أنه يهيئ لك أسباب الطعام، ثم يهيئ لك الأدوات، أنت إذا أردت أن تأكل تحتاج إلى طعام، وتحتاج إلى أن تحرك يدك لتأكل، وتحتاج أن تمضغ، وتحتاج معدة، وتحتاج امتصاصاً، وأمعاء، ثم تحتاج تفرغها، فمن الذين يطعم إذا؟ هو الله تعالى، (وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ) لا أحد يطعمه جل جلاله لأنه ليس بحاجة إلى أحد ولا إلى طعام أصلاً، هذا معنى الصمد جل جلاله، يحتاجه كل شيء في كل شيء، وهو مستغن عن كل شيء، تصمد إليه المخلوقات جميعها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

[سورة الإخلاص]

(وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) وهذا الفعل بني للمفعول لما لم يسم فاعله، وقد قلت أيضاً قبلاً: إنه في القرآن تحديداً، وحتى في اللغة ليس من الصحيح أن نقول: فعل مبني للمجهول، لأننا إذا قلنا: أمرت مبنياً للمجهول فكأنه حاشاه جل جلاله مجهول، وهو معلوم، فمن الذي أمره؟ الله جل جلاله، هذا الفعل مبني لما لم يسم فاعله، لماذا لم يسم فاعله؟ لشدة العلم به، ليس لشدة الجهل به، بل لشدة العلم به.

رسول الله هو أعظم من أسلم أمره لله واستسلم وانقاد لطاعته سبحانه:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ) من قبل الله تعالى (أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) إذا قلنا الإسلام هنا بمعنى الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم فرسول الله أول من أسلم، أول مسلم في الأرض بمعنى الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن قال قائل: لكن هناك قبلاً مسلمين، سيدنا إبراهيم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)

[سورة آل عمران]

بل إن كل الرسل إذا نظرت في القرآن الكريم تجد أنهم كانوا مسلمين لله، فكيف هو أول من أسلم؟ كما قلنا، إما أنه شريعة الإسلام، أما إذا قلنا بمعنى أول من أسلم أي استسلم لله عز وجل، فالأولية هنا ليست أولية زمنية، وإنما أولية قوة، فيقال: فلان أول شخص في جراحة القلب، يقول له واحد: لا، قبله يوجد كثير تخصص بالقلب، يقول له: أول طبيب في جراحة القلب بقوته ومكانته العلمية، فالأولية إما أن تكون أولية زمنية، فهي هنا بمعنى الأولية في شريعة الإسلام، وأنا أرجح المعنى الثاني وهو أول من أسلم هنا بمعنى أعظم من أسلم أمره لله، واستسلم، وانقاد لطاعة الله هو رسول الله على الإطلاق، ما سبقه أي نبي من أولي العزم، ولا من غير أولي العزم، فهو سيد ولد آدم، فهو أول من أسلم صلى الله عليه وسلم بمعنى أكثر الناس وأشدهم استسلاماً وانقياداً للشريعة، ولمنهج الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

أعظم فوز مبین واضح يفوزه الإنسان أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

[سورة الأنعام]



العظيم يصف اليوم بأنه عظيم

هذا الكلام مخيف جداً إذا كان رسول الله يؤمر أن يقول: (إِنِّي أَخَافُ) فمن نحن حتى لا نخاف من المعصية؟ (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) اليوم عظيم جداً، يصفه الله تعالى بأنه عظيم، العظيم يصف اليوم بأنه عظيم، فما عساه يكون!

اليوم إذا قال لك طفل: أنا أملك مبلغاً عظيماً، فتقول لعل في جيبه مئة دينار، فإذا قال لك أكبر رئيس دولة في العالم: أعددتنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، فإنك تقدرها بمئة مليار، الكلمة نفسها، فإذا قال الله تعالى جل جلاله عن هذا اليوم بأنه يوم عظيم فما عساه أن يكون هذا الموقف؟ (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقُورُ الْمُبِينُ (16)

[سورة الأنعام]

(مَنْ يُصْرِفْ) أي من يصرف عنه العذاب (يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ) أي فقد رحمه الله (وَذَلِكَ الْقُورُ الْمُبِينُ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْجِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ
(185)

[سورة آل عمران]

فأعظم فوز مبین، واضح، بین، جلي يفوزه الإنسان أن یرزح عن النار، وأن یدخل الجنة.

قدرة الله متعلقة بكل الممكنات فلا شيء يعجز عنه جل جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

[سورة الأنعام]

المس أصله اللمس برفق، باليد، أن يمس شيء شيئاً، ويتعدى بالباء لأنه يحتاج إلى آلة، يقول: مسست بيدي، يحتاج إلى آلة، الآلة هي اليد، مسست بيدي، وقد يستعار للأمور المعنوية هنا كقوله تعالى هنا: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) أي وإن بنالك الله، لكن كني عنه بالمس لأنه يشبهه من ناحية أنه يصل إلى الإنسان بألة معينة، بسبب معين، والمس فيه لطف، ما قال: وإن يأتك الضر العظيم (وَإِنْ يَمْسَسْكَ) وكان الضر ليس مقصوداً بذاته وإنما هو تنبيه من الله تعالى لك، ابتلاء لرفع درجتك، فهو ليس مقصوداً لذاته (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) هناك قال: بصر، هنا ما قال: نفع، قال: (بِخَيْرٍ) هذا يسمى في اللغة العربية الاحتياك، ما معنى الاحتياك؟ أي بصفة هنا، وصفة مغايرة هنا، فأفهم ضد هذه هنا، وضد هذه هنا.

أوضح من هذه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَدَكَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُعَايِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ بَرَّوْهُمْ مِنْتَلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (13)

[سورة آل عمران]

معنى ذلك التي تقاوت في سبيل الله مؤمنة، والكافرة تقاوت في سبيل الشيطان، فالصفتان فهمت منهما أربع، هذا اسمه الاحتياك، أسلوب بلاغي بديع.
هنا: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ) إذا الضر هو الشر، والخير هو النفع (وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي قدرته جل جلاله متعلقة بكل الممكنات، فلا شيء يعجز عنه جل جلاله.

الله جل جلاله حكيم خبير:

كل هذه الآيات كما تلاحظون آيات مكية، تقرر حقيقة التوحيد في النفوس، تربي الناس على التوحيد، من هو إلها جل جلاله الذي نعبد؟ لماذا نتوجه إليه وحده؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

[سورة الأنعام]



سبحان من قهر عباده بالموت

القاهر؛ الذي لا يغلب، ولا يفلت من قبضته أحد من المقهورين، قهرنا جل جلاله بكل شيء، إذا أردت أن تأكل فأنت مغلوب، لا تستطيع أن تأكل إلا بأمره، وإذا أردت أن تخرج ما أكلت فيأمره، والموت قهر، سبحان من قهر عباده بالموت، فلا تعلم متى يأتي، وسيولة الدم في شرايينك قهر، فإذا ضاقت الشريان تحولت الحياة إلى جحيم لا نطاق، وإذا تخنرت نقطة من الدم تكاد لا ترى بالعين أيضاً جلطة والحالة في المشفى، فهو القاهر جل جلاله، كلنا مقهورون، كلنا عبيد قهر، المؤمن وغير المؤمن (**فَوْقَ عِبَادِهِ**) المؤمن وغير المؤمنين (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) هذه ليست من الآيات المتشابهات بمعنى أنه أيضاً نسأل فوق، كيف فوقهم؟ أي فوق، أين؟ لا أبدأ، الفوقية هنا واضحة (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) العلو الربوبي عليهم، فقهره محيط بهم من كل جانب، فهو فوقهم لأنه جل جلاله المتحكم بشؤونهم، والمتصرف برزقهم، وبصحتهم، وبعاقتهم، وبأجسادهم، وبكليتهم، وبكبدهم (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**) لما قال: وهو القاهر هذا أسلوب آخر من أساليب الحصر، التقديم والتأخير حصر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا كَتَبْنَاكِ تَعْبُدُ وَإِنَّا كَتَبْنَاكِ تَسْتَعِينُ (5)

[سورة الفاتحة]

من أساليب الحصر النقي، وإلا، لا إله إلا الله حصر، ما جاء إلا محمد حصر، واحد الذي جاء فقط، هذان أسلوبان.

الثالث: (**وَهُوَ الْقَاهِرُ**) هو معرفة، والقاهر معرفة، ما قال: وهو قاهر، قال: (**وَهُوَ الْقَاهِرُ**) فكلاهما معرفة، فعندما يأتي المبتدأ معرفة، والخبر معرفة أيضاً هذا أسلوب من أساليب الحصر في اللغة العربية، كقوله صلى الله عليه وسلم:

{ الْحَقُّ عَرَفُهُ، مَنْ جَاءَ لَيْلَةً جَمَعَ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَقَّ، أَيَّامٌ مِّنِّي : ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمِيْنَ فَلَا يُؤْمِنُ فَلَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا يُؤْمِنُ }

{ عليه }

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي]

{ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **الَّذِينَ النَّصِيحَةُ** }

[أخرجه الترمذي]

(**وَهُوَ الْقَاهِرُ**) أي لا قاهر إلا هو جل جلاله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**) الحكيم جل جلاله يتصرف بالحكمة، ووفق الحكمة، وكل أفعاله حكمة، وكل شريعته حكمة، والحكيم يضع الأشياء في مواضعها، في الوقت المناسب، وفي الزمان المناسب، ولا حكيم إلا الله جل جلاله، وهو الخبير جل جلاله، والخبرة من العلم، لكنها أدق من العلم، فالخبير يعلم بواطن الأمور وظواهرها وبواطنها ونباتها، ويعلم كل شيء عنها فهو جل جلاله حكيم، خبير.

والحمد لله رب العالمين

نور الدين الاسلامي